

التشكيل الفرعي للجملة وأسراره الوظيفية عند عبد القاهر الجرجاني

أ. خليفة عبود

الملخص:

يتناول هذا المقال نظرة عبد القاهر الجرجاني للنحو التي تركز على المعنى النحوي المرتبط بعامل النظم والنظم في عملية إنتاج الكلام، ويتتبع الأنماط النحوية واستعمالاتها المختلفة في السياقات المتعددة للتشكيل الفرعي للجملة العربية (جملة المبتدأ والخبر و جملة الفعل والفاعل)؛ التي لا تخرج عن نطاق التقديم والتأخير، الذي يخضع لقواعد النحو ووظائفه التي يفرضها المقام. والحذف ومواطن المزية فيه. والكلام الذي لا يخرج عن الإثبات والنفي والاستفهام. للوصول إلى نتيجة مفادها أن عبد القاهر الجرجاني نقل النحو من الدراسة الشكلية إلى الدراسة الوظيفية. فهو لا يهتم من النحو إلا الجانب الذي يمكن توظيفه فيما يضمن الجودة والبراعة. الكلمات المفتاحية: الدرس النحوي، الدرس البلاغي، الجملة، التقديم والتأخير، الحذف.

Abstract

This article examines Abdel kaher Jerjani look for some meaning, which is based on the grammar-related systems Avamla The governing in speech production process, tracks grammatical patterns and various uses in multiple contexts sub-formation of the Arab inter (inter Debutante news and inter act and actor); that does not depart from the scope of surrender and the delays, which is subject to the rules of grammar, functions imposed primarily that. The deletion and citizen advantage in it. And the word which does not deviate from the prosecution and defense and the question. To reach the conclusion that Abdel kaher Jerjani as transfer of formal study into the functional study. It does not care as the only side which can be employed with guaranteed quality and ingenuity.

Key words : Grammar lesson, the lesson rhetorical, wholesale, and delay the introduction, deletion.

اهتم علماء العربية ودارسوها القدماء نحويون وبلاغيون اهتماما كبيرا بلغتهم. فشاع
الدرس اللغوي لضرورة دينية. حيث ولد النحو العربي خوف شيوع اللحن، وفساد اللسان
العربي، وتسلبه إلى القرآن الكريم. ونما وترعرع الدرس البلاغي في أحضان الإعجاز القرآني،
وذاع صيت البلاغين باكتشافهم لأسرار الأسلوب القرآني حيث سبروا أغواره، وحددوا عجائبه
،وتدارسوا درره، و وجوه إعجازه ؛ و وازنوا بينه وبين كلام البشر قصد بيان إعجاز القرآن من
خلال الإعجاز البياني. وكلّ هذا العمل والجهد العظيم كان بدافع الذود عن القرآن الكريم
، وإثبات صدق الرسالة المحمدية. وهذا ما جعل علماء اللغة يتناولون الظاهرة اللغوية من حيث
الصحة النحوية، والاستقامة البلاغية وشروطها.

ولم يكن ليتأتى لهم ذلك إلا بالمزاوجة بين الدرس النحوي، والدرس البلاغي
للوصول إلى هذه الغاية النبيلة. وكتب القدماء ومصنفاتهم دليل قاطع على تكامل هذين
العلمين؛ وعدم الفصل بينهما. فسيبويه مثلا كتابه حافل بالإشارات البلاغية مع القواعد
النحوية، إضافة إلى علوم اللغة الأخرى، والتي ليس المقام مطابقا للحديث عنها. فكتابه "
ليس كتابا في النحو، بل يشتمل على مختلف علوم اللغة العربية. فيه تجسيد لكلام العرب،
وحديث عن القرآن، والنحو، والصرف والبلاغة، ومخارج الحروف والتجويد..."⁽¹⁾ ومن ثم
فسيبويه لا يفصل بين النحو والبلاغة، ولا استقلال عنده للنحو عن علوم العربية الأخرى.

وإذا تفحصنا معنى النحو والبلاغة، ولا استقلال عنده للنحو عن علوم العربية الأخرى.
وإذا تفحصنا معنى النحو والبلاغة، ولا استقلال عنده للنحو عن علوم العربية الأخرى.
الأخرى حيث يعرفه ابن جني بقوله: "هو انتحاء سُمِّتِ كَلَامِ الْعَرَبِ فِي تَصْرِفِهِ مِنْ إِعْرَابٍ
وغيره، كالتثنية، والجمع والتحقيق، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك،
ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها من الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم؛
وإن شَدَّ بعضهم عنها رَدَّ إليها"⁽²⁾ وبذلك فالدارس للعربية وعلومها يتوصل إلى نتيجة مفادها
أنَّ الدرس اللغوي في بدايته لم يخرج عن نطاق الدراسة الوصفية الشاملة لأن انتحاء سمت

كلام العرب يمثل دعوة عامة لاتباع لغة العرب في الشكل والمضمون ومحاكاتها على مستوى التركيب النحوي و الصحة البلاغية . ومن ثم فالدراسة كذلك تقتضي الإلمام بكل ما يميز اللغة العربية من فصاحة وبلاغة وتركيب نحوي وصرفي...والجمال لم يكن مجال الدراسات المتخصصة التي تعتمد إلى دراسة الجوانب اللغوية منفصلة عن بعضها البعض. فأبوعبيدة معمر بن المثنى (210هـ) في كتابه مجاز القرآن تناول النظم بدراسة ما فيه من ظواهر لغوية تجمع بين البلاغة والنحو وهي التقاسم والتأخير والحذف وغير ذلك .

وفي هذا يقول الدكتور صالح بلعيد: " حيث نظر في أحوال التراكيب و التصرفات البلاغية التي تحدث في النظم العربي".⁽³⁾ ونحا الفراء (207هـ) نحو سيبويه في مؤلفه معاني القرآن "حيث عالج بعض التصرفات البلاغية التي أشكلت على الدارسين".⁽⁴⁾ أما الجاحظ اللغوي فأراه البلاغية لا تبرح مؤلفاته ،و كذلك فعل ابن قتيبة (276هـ) وغيره من العلماء الذين وصلوا النحو بالبلاغة . إلى أن وصل الأمر إلى ابن جني الذي سلك نهج القدماء في عدم التفريق بين النحو والبلاغة ، و وصل الإعراب بالمعنى الوظيفي داخل السياق. وهذا ما أثر في الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي تجاوز حدود الإعراب وتغيير أواخر الكلم ،وأبدع نظرية النظم التي جاد بها وأجاد فيها مستفيدا ممن سبقوه من علماء اللغة والإعجازيين الذين بذلوا جهدا مضنيا في الكشف عن مواطن الإعجاز في القرآن الكريم متصديا للذين أفقدوا النحو ميزاته ،ونفروا الناس فيه .المناطقة الذين أغرقوا في تتبع العلل وركزوا على المباني ،وأهملوا المعاني. فسيطرت بذلك النزعة الشكلية على جلِّ مسائله ،وشاعت تجزئة الكلام ،وغاب تناول التركيب الكلامي بالدراسة. فدعا إلى النظم أو ما تؤديه الكلمات في السياق أو التركيب الذي لا يتجزأ. "فأرجع المزية إلى النظم الذي هو وضع الكلام حسب مقتضيات علمي النحو والبلاغة إذ لاوجود للبلاغة خارج التركيب النحوي ؛ولا معنى للتركيب النحوي بدون مراعاة الإبانة والسلامة البلاغية"⁽⁵⁾.

والمعول عليه لتحقيق هذه المزية والبراعة ،وتجاوز ما حاق بالنحو والبلاغة من جمود وجفاف كان لابد من دراسة تشجع على درس النحو ،وتمحو ما علق به من جفاف و تنفير للناس، وتبعث علم المعاني من جديد فيصير مجالا خصبا للتطبيق ،وتحقيق المراد الفني الإبداعي.حيث ربط الجرجاني بين النحو والبلاغة ،وحدد المعيار الذي يجب أن يقاس به النظم "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها .و ذلك أننا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد منطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق.وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو ومسرع، أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع. فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له..." (6)

ومن خلال هذا القول نتبين العلاقة الوطيدة التي تجمع بين النحو ،وبلاغة وخاصة علم المعاني. وهذا هو السبيل لتخليص النحو من الجفاف ،وبلاغة من التجريد ،وإنتاج درس لغوي مثمر يطلق عليه النحو البلاغي. وهذا ما أشار إليه الدكتور تمام حسان في قوله: "إن النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمى علم المعاني ، حتى إنه ليحسن في رأيي أن يكون علم المعاني قمة الدراسة النحوية أو فلسفتها إن صح هذا التعبير ولقد كانت" مبادرة العلامة عبد القاهر رحمه الله بدراسة النظم ،وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية قيمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب". (7)

ولإمطة اللثام عن نظرة عبد القاهر الجرجاني للنحو وجب أن نرصد التشكيل الفرعي للجملة عنده. والتي ترتبط بالسياق الكلامي لنصل إلى أن بنية الجملة لها مستويات وأنماط انطلاقاً من نظريته التي تقتضي التمييز بين مستويين في بنية الجملة. أولهما مستوى البنية النحوية للجملة الذي يرتبط بالسياق الكلامي الفعلي الذي تدخل فيه، وتتم دراسة هذا المستوى في علم النحو ويمكن من معرفة الارتباط النحوي بين الكلام ؛ وثانيهما مستوى البنية الإخبارية للجملة الذي يرتبط بالموقف أو الحال الذي يقال الكلام فيه . وتتم دراسة هذا المستوى في علم المعاني ، ويمكن من معرفة ارتباط معنى الكلام بالموقف الذي يقال فيه . التشكيل الفرعي للجملة عند عبد القاهر الجرجاني:

أولاً: النحو عند عبد القاهر الجرجاني :

أبي عبد القاهر الجرجاني أن ينساق مع نظرة النحاة الخاطئة للنحو فانتشله من مهاوي التزدي، وغياهب الجمود ، فدعا إلى دراسة النظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق مجسداً الرغبة في إيضاح المعاني الوظيفية للتركيب الكلامي ، وأوجه الدلالة في تأليف العبارة . فالنحو عند عبد القاهر الجرجاني هو الذي يفتح الألفاظ المغلقة على معانيها ، وهو المعيار الذي يعرف به فضل كلام على كلام ، وهو مقياس الصحة من السقامة في الفكر . حيث يقول عن الإعراب : " قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون المستخرج لها، وأنه هو المعيار الذي يتبين نقصان الكلام ورجحانه حتى يعرض عليه " . (9) وعلى الرغم من أن منهج عبد القاهر يحفل باتّباع السابقين في الدرس النحوي كأمثال سيبويه الذي يعتد به كثيراً في المرجعية ، وأمثال أبي علي الفارسي الذي يعدّه شيخه الأول فإن عبد القاهر يربط الدراسة النحوية واللغوية معا بعامل النظم ، ويربط عامل النظم بالعامل النفسي في عملية إنتاج الكلام " . (10)

أما قواعد النحو لم تعد لدى عبد القاهر الجرجاني جافة مقصورة على الإعراب، وإنما أصبحت مقياساً يُهتدى به في البراعة، ووسيلة من وسائل التصوير والصياغة التي يتفاوت الشعراء في التسابق فيها: "وإنما سبيل هذه المعاني (النحوية) سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش. فكما أنك ترى الرجل قد تَهَلَّى في الأصباغ، التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضروب من التخيّر والتدبّر في أنفُس الأصباغ، وفي مواقعها، ومقاديرها، وكيفية مزجها لها، وترتيبها إياها، إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب كذلك حال الشاعر، والشاعر في توخيها معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم" (11).

وهكذا يبدو أن فهم عبد القاهر للنحو، قد أعاد للغة مكانتها، وبين قدراتها العجيبة على تأدية المعاني المرادة بواسطة الصياغة الفنية الحقة، فالنحو عنده ليس ذلك العلم الذي يبحث في أواخر الكلمات بقصد إعرابها، وليس هو ذلك الشيء الذي لا مكان له في فن القول، أو في الفن الأدبي عموماً، وإنما هو العلم الذي يكشف لنا عن المعاني التي هي ألوان نفسية نستطيع إدراكها من وجوه استعمال الكلام، ومن الفروق التي تبدو بين استعمال وآخر من خلال ارتباط بعضها ببعض، بحيث تجتمع لتشكيل معاني نسيجا حيا من المشاعر الإنسانية والصور الذهنية والأحاسيس الوجدانية.

وحقيق القول: "لقد آن لمذهب عبد القاهر الجرجاني أن يحيا، وأن يكون هو سبيل البحث النحوي، فإن من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحرر، وإن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب، ويزينها بقدرتها على رسم المعاني، والتأثير بها من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها" (12).

ثانياً: التشكيل الفرعي للجملة عند عبد القاهر الجرجاني:

1. التقديم والتأخير : يعدّ التقديم و التأخير من أهم المسائل التي تعرض لها النحاة في دراساتهم وأبرزهم

الخليل وما نسب إليه. أما سيبويه فقد تناول التقديم والتأخير وربطه بالعناية والاهتمام حيث يقول: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهملانهم ويعينانهم". (13) وقد ازداد الأمر جلاءً و وضوحاً مع ابن جني الذي أفرد التقديم والتأخير بفصل كامل مبيناً ما جاز تقديمه وما لا يجوز نحويًا مكتفياً بذكر المفعول به. والواضح مما سبق أن تناول النحاة لهذا الموضوع لم يركز على المقصد من وراء التقديم والتأخير وإن كانوا قد تناولوه في معرض حديثهم عن القواعد النحوية بشكل عام.

ومن منطلق حرص عبد القاهر الجرجاني على المعنى النحوي فصل القول في التقديم والتأخير: "هذا باب كثير الفوائد ، جم المحاسن، واسع التصرف ، بعيد الغاية لا يزال يَفْتَرُّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مَسْعُهُ ، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدْهِيءُ ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان". (14)

والتقديم عند الجرجاني نوعان : تقديم على نية التأخير ، وتقديم لا على نية التأخير .
أ. تقديم على نية التأخير : كتقديم الخبر على المبتدأ ، والمفعول على الفاعل كقولك : "منطلق زيد" و "ضرب عمرو زيد". فالخبر منطلق لم يتغير حكمه الإعرابي رغم تقديمه والمفعول عمرو لم يتغير وصفه الإعرابي رغم تقديمه .

ب. تقديم لا على نية التأخير : " وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً ، فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا " (15) حيث تقول مرة: "زيد المنطلق" وأخرى " المنطلق زيد" فهنا تغير الرتبة يؤدي إلى تغير الحكم الإعرابي . ومن أمثلته كذلك قولك : "ضربت زيدا ، وزيدٌ ضربته" فلم تقدم زيدا على أن يكون مفعولاً

منصوباً بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء، وتشغل الفعل بضميره، وتجعله في موضع الخبر .

فلو نظرنا في أجزاء الجملة وتأملنا الجزء الذي قدم فيها ، لرأينا أهم أجزائها ، ولم يقدم إلا لكونه الأهم ، وموضع عناية الناس وانشغالهم ، فالعناية والاهتمام أصل في كل تقدم ، إلا أنه ينبغي أن يمتد تأملنا على أبعد من هذا ، فنعرف سبب العناية ، ونقف على دواعي الأهمية ، وقد حذر الجرجاني من أن نقف عند العناية والاهتمام، وعلاها سبباً للتقدم دون أن ينقب عن دواعي الاهتمام ، ونفتش عن أسباب العناية .

يقول عبد القاهر : " وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : " إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم " من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم ؟ ولتحيلهم ذلك ، قد صَغُرَ أمر التقدم والتأخير في نفوسهم ، وهَوَّنوا الخطب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف . ولم تر ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه " (16) ولمزيد من الإيضاح أورد الجرجاني المثال التالي : " قتل الخارجي زيد " فتقدم المفعول به على الفاعل لأهميته عند القوم ، فالخارجي كان يخرج فيعذب في الأرض فساداً ، فكان القوم مهتمون بقتله ، لا بمن يقتله . حتى يأمنوا شره ، ويسلموا من أذاه . ومن ثم راح الجرجاني يدعو إلى ربط هذه الأنماط بالأغراض والأحوال التي تلزمها دلالة الكلمات والسياقات الكلامية التي ترد فيها، ومراعاة العوامل النفسية وأحوال المتكلم والمتلقي .

كما يعيب الجرجاني على النحاة الذين لا يرون في التقدم إلا العناية والتوسعة، ويقسمون الكلام إلى ضربين مفيد وغير مفيد بقوله " واعلم أن من الخطأ أن يُقسَّم الأمر في تقدم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيداً في بعض الكلام ، وغير مفيد في بعض ، وأنيُ علَّل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، تطوّر لهذا قوافيه ، ولذلك سجعه ، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة، ولا يدل أخرى . فمُتَى ثبت في تقدم

المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام ، أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير ، فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال . ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء ، أن يدعي أنه كذلك عموم الأحوال ، فأما أن يجعله بينَ بين فيزعم أنه للفائدة في بعضها ، وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض ، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به . هذا عن الإثبات ، أما إذا انتقلنا إلى التقديم والتأخير في حالة النفي : فتجد الجرجاني يرى أن التقديم والتأخير متعلق بالأغراض والأحوال التي تخص المتلقي ، والسياق الكلامي وهذا ما يظهر في تطبيقاته على سياق القصر ويورد في هذا الشأن مثالين أولهما : " ما ضرب زيداً إلاَّ عمرو " و " ما ضرب عمرو إلاَّ زيداً " ففي المثال الأول بيان للضارب والإخبار بأنه عمرو دون غيره ، وفي المثال الثاني بيان للمضروب بأنه زيد . وعلى هذا الأساس فسر الجرجاني تقديم لفظ الجلالة في قوله تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " (17) ، خلاف ما يكون لو أخر . بقوله : " ... علمت أن تقدم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشون من هم ، ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ، ولو أخر ذكر اسم الله عز وجل ، وقدم (العلماء) فقليل : " إنما يخشى العلماءُ الله " لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المخشي من هو؟ بالإخبار بأنه الله تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها ، كما هو الغرض في الآية ، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً ، إلا أنهم مع خشيتهم لله تعالى يخشون معه غيره ، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى " (18)

وبعد بيان السر في تقديم المفعول به على الفاعل في الآية الكريمة يجب على البليغ أن يفقه كنه اللغة ويراعي دلالة السياق والتراكيب حتى تخرج أبنيته سليمة دقيقة لا تناقض فيها ، ولا تدافع ليتسنى على المتلقي فهمها وإدراك مراميها ، وهذا لا يتأتى إلا بالدربة والتمرس على أساليب العربية .

وفي تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات و إيلائه أداة النفي "فلو قلت:" ما زيداً ضربتُ" و"ما بهذا أمرتك" و"ما راكباً جاء زيد" أفاد نفي الفعل عن المقدم وإثباته لغيره ، وإذا ولي الفعل النفي ففيل: "ما ضربت زيدا ، ما أمرتك بهذا " ، ما جاء زيد راكباً" ، أفاد ذلك نفي الفعل عن المتعلق المذكور دون منازعة في غيره " . (19)

كما يوجهه عبد القاهر إلى نمط آخر من صيغة النفي في قوله : "وما ينبغي أن تعلمه أنه يصح لك أن تقول : " ما ضربت زيدا ولكنني أكرمته" ، فتعقب الفعل المنفي بإثبات فعل هو ضده ولا يصح أن تقول : " ما زيدا ضربت ولكنني أكرمته، وذاك أنك لم ترد أن تقول: " لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك ، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ولكن ذاك ، فالواجب إذاً أن تقول : ما زيدا ضربت ولكن عمرو". (20) أما فيما يتعلق في تقديم مثل وغير "فيلزم تقديمهما إذا أريد بهما الكناية عما أضيفتا إليه كما في قول أبي الطيب المتنبي :

مِثْلُكَ شَيْخٌ زَنْ عَنِ صَوْبِهِ وَبِئْسَ تَرْدُ اللَّمَعِ عَنْ غَرَبِهِ (21) السريع

وقول الخارجي للحجاج عندما قال له : " لأحملك على الأدهم ، يريد القيد " و"مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب " فلم يرد بمثل في هذه المسألة سوى الذي أضيفت إليه ، فالمراد في المثال الأول أنك قادر على كف الأحزان وتفريج الكربات وفي المثال الثاني "أنت ترعى الحق والحرمة"، وكذا القول في " غير" تقول :غيري يفعل ذاك بمعنى أني لا أفعله ..ويقول أبو تمام :

وغيري كلُّ لمَ عَرُوفَ سُحْتًا وَتَشَجُّبٍ عِنْدَ بَيْضِ الْأَيْدِي (22) الوافر

أراد أن يقول : أنا لا آكل المعروف سحتا ، ولم يرد أن يعرض بشاعر آخر، لأن أبا تمام قصد أن ينفي عن نفسه تهمة أن يكون ممن يكفر النعمة فيهبو من أنعم عليه . ويرى الجرجاني أن "مثل وغير" دائما يقدمان على الفعل وهذا قانون عرقي سار عليه العرب لأنه إذا قدمتهما نبا المعنى وتغيرت صورته " . (23) وفي ذلك يقول: "واستعمال "مثل وغير" على هذا السبيل شيء

مركز في الطباع ، وهو جار في عادة كل قوم . فانت الآن إذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين قدما أبداً على الفعل إذ نحي لهما هذا النحو الذي ذكرت لك ، ونرى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدم. أفلا ترى أنك لو قلت : " يثني المزن عن صوبه مثلك " ، "ورعى الحق والحرمة مثلك " ، " ويحمل على الأدهم والأشهب مثل الأمير " و" ينخدع بغيري بأكثر هذا الناس " و" يأكل غيري المعروف سحتا " رأيت كلاما مقلوبا عن جهته، ومغيراً عن صورته ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه ، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه " . (24)

أما من حيث الاستفهام في مواطن التقديم والتأخير فالجرجاني ينبه إلى ضرورة أن يكون المتكلم واعيا ومدركا لدلالات التراكيب ، وما تطلبه الصياغة ويقتضيه النظم من مراعاة ترتيب أجزاء الكلام وفق ما يقتضي المعنى. فيرى أنه إذا قلت : " أزيذا تضرب ؟ " كنت أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب ، أو موضع أن يجترأ عليه ، أو يستجار ذلك فيه . ومن الشواهد التي ساقها الجرجاني في هذا المقام مبدئيا الحسن في تقديم المفعول به في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغِيرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ ، قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴾ . (25) ، وقوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ كُفْرًا أَتَأْتِكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَأْتِكُمُ السَّاعَةُ أَغْيَالُ اللَّهِ تَلْدَعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . (26) ، بقوله : " وكان له من الحسن والمزية والفخامة، ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل : " قل أأخذ غير الله وليا ؟ " و" أتدعون غير الله " ، وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : " أأكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ أو أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ و أأكون جهل أجهل وعمي أعمى من ذلك ؟ " ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل : أأخذ غير الله وليا " وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ، ولا يزيد على ذلك " . (27)

وبذلك يمكن القول إن دراسة عبد القاهر الجرجاني لباب التقديم والتأخير جاءت فريدة متميزة عن دراسات السابقين، يكفي أنها استغرقت ثمانية وعشرين صفحة من دلائل

الإعجاز، وقد ضمّنها شكواه من العلماء السابقين الذين لم يذكروا له غير العناية والاهتمام". (28)، والمستفاد من هذه الدراسة أن تقدّم جزء من الكلام أو تأخيرها لا يرد اعتباراً في نظم الكلام وتأليفه، وإنما يكون عملاً مقصوداً يقتضيه غرض بلاغي أو داع في أو بعد نفسي.

2- الحذف : إن الحذف ميزة لجأ إليها العرب في كلامهم من أجل التسهيل والتخفيف عليهم، والإيجاز في كلامهم، إذ " يعد الحذف من شجاعة العربية" (29) _ كما أشار ابن جني _ لأن وراءه أسرار ومزايا يدركها الخبير بأساليب الكلام ، والبصير بطرق القول ، فالمتكلم يطوي جزءاً من أجزاء الكلام ، ولا يختل المعنى بهذا الطي ، بل يزداد الكلام حسناً ، وتكثر فوائده ومزاياه، والخبير بطرق القول هو الذي يستطيع ممارسة هذا الفن من فنون الكلام، ويعلم مواطنه، ويعرف متى يستجد ويدرك الإجادة .

والحذف كثير عند العرب ومتنوع فنرى حذف الكلمة حرفاً وفعلاً واسماً، مضافاً ومضافاً إليه ، فاعلاً ومفعولاً ، صفة وموصوفاً ، خبراً ومبتدأ... كما نرى حذف جزء من الكلمة وبقاء جزء ، ولا بد في كل حذف من دليل يدل على المحذوف ، ومن سر يقتضي الحذف .

وقد اهتم بدراسته النحاة و البلاغيون، وعلى رأسهم سيبويه الذي تعرض إلى الحذف، وبيان المحذوف والمواضع التي يكثر فيها ، وقد عقد أبواباً كثيرة للحذف ، من ذلك " ما يحذف منه الفعل لكثرة في كلامهم حتى صار بمنزلة المثال": وذلك قولك : هذا ولا زعماتك " أي : ولا أتوهم زعماتك ، ومن ذلك قول الشاعر وهو ذو الرمة ، وذكر الديار :

دِيَارَ مِيةٍ إِذْ هِيَ مُسَاخِةٌ وَلَا رَى مِثْلَهَا جُمَّ وَلَا عُبَّ البسيط

كأنه قال: " أذكر ديار مية" ، ولكنه لا يذكر " اذكر" لكثرة ذلك في كلامهم ، واستعمالهم إياه ، ولما كان فيه من ذكر الديار قبل ذلك ، ولم يذكر : ولا أتوهم زعماتك لكثرة استعمالهم إياه ، ولا استدلاله مما يرى من حاله أنه ينهائهم من زعمه . ومن ذلك قول

العرب: كليهما وتمراً، فهذا مثل قد كثر في كلامهم واستعمل وترك ذكر الفعل لما كان قبل ذلك من الكلام كأنه قال: "إعطني كليهما وتمراً"⁽³⁰⁾. أما أبو سعيد السيرافي (268هـ) فقد قال: "اعلم أن الشاعر يحذف ما لا يجوز حذفه في الكلام لتقوم الشعر كما يزيد لتقومه"⁽³¹⁾.

وله في ذي الرمة قولان: أحدهما: أنه رخم مية للضرورة على ما تقدم القول فيه، والثاني أن المرأة تسمى بمى ومية، وهما اسمان لها، فمرة يسميها بهذا ومرة يسميها بهذا.⁽³²⁾ ويعتبر ابن جني من العلماء الذين أولوا الحذف أهمية كبيرة ودراسة عميقة حيث يقول: "قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته".⁽³³⁾ وقد مثل له كثيرا من القرآن الكريم. والحذف عند النحاة واللغويين جائز بشرط ألا يتأثر المعنى.

أما إذا نظرنا إلى صنيع عبد القاهر في هذا الباب وجدنا أنه نفخ فيه الروح البلاغية، وبين مواطن المزية فيه، فيقول مشيراً إلى قيمته الجمالية: "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أريد للإفادة، وتحدك أنطق مما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيان إذا لم تبين".⁽³⁴⁾ وهذا الكلام لا يصدر إلا عن رجل خبر اللغة وعرف أسرارها، وأدرك أبعادها فتكشفت له مواطن جمال الحذف في كلام العرب منظومه ومنشوره. وافتتح حديثه عن الحذف على طريقة النحاة بعد إشارته إلى قيمته البلاغية، ويستشهد بما أورده سيبويه في هذه الأبيات:

اعتاد قلبك من ليلى عوائده	وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به	وكل حيران جار مأوه خضل

فقال: أراد: ذاك ربع قواء أو هو ربع. وهذه طريقة العرب أنهم إذا ذكروا الديار والمنازل يضمرون المبتدأ فيرفعون ، وقد يضمرون الفعل فينصبون كقول ذي الرمة الذي أورده سيبويه في كتابه ، وأشرنا إليه سابقاً.

ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ: "القطع والاستئناف"، يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول، ويستأنفون كلاماً آخر ، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ ، مثال ذلك قول عمرو الزبيدي:

وعلمت أئي ومذا كَ مَنازلُ كَعبا وَهَذا
قَومٍ إِذا لَيسَوا لِحَديد تَمنَروا حلقاً وَقَدا

ومما اعتيد فيه أن يجيء خبراً قد بينى على مبتدأ محذوف قولهم بعد أن يذكروا الرجل: " فتى من صفته كذا " و " أغر من صفته كيت وكيت " كقوله:

أَلا لا فَتًى عُدَ ابْنِائِيرَ ةَ الْفَتَى ولا عَرفَ إِلا قَد تَوَلَّى وأَدبَر
فَتًى حَناظِلي ما تَزال رِكاِبَه تَجودُ بِمَعروفٍ وَتُنكَرُ مَنكَرا

وقول إبراهيم بن عباس الصولي:

سَأشْكُرُ عَمرا إِذا تَراخَمتَنيَّ أَيايَ لَمْ تُمَنِّ وَإِنا هِي جَلَّتْ الطويل
فَتًى غَيرَ مَحجوبِ الغَني عَن صَدِيقَه ولا تُظهِرُ الشُّكوى إِذا النُّعلَ زَلَّتْ . (35)

وهذه الأبيات تبين طريقة العرب في الحذف ، وما اعتادوه من أساليب معينة ، استطاع الجرجاني أن يكشف عنها ، ويبرز مواضع الجمال فيها متخذاً النحو بطريقة فذة في خدمة البلاغة حيث يقول بعد الأمثلة التي ذكرناها وكثير مثلها: " فتأمل هذه الأبيات كلها واستقرها واحداً واحداً ، وانظر إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذ أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجد ، و ألطفت النظر فيما تحس به . ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى اللفظك، وتوقعه في سمعك ، فإنك تعلم أن

الذي قلت كما الذي قلت ، وأن ربَّ حذف هو قلادة الجريد و قاعدة التجويد" . (36)
ويذكر من لطيف الحذف قول بكر بن النطّاح:

الْعَيْنُ تُبْدِي الْحُبَّ وَالْبَغْضَا وَتُظْهِرُ الْإِبْرَامَ وَالنَّقْصَا
كُتُوبٌ مَا أَنْصَفْتَنِي فِيهَا هَوَى وَلَا رَحِمْتَ الْجَالِمَ مَنْضَى
غَضَبِي وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَشْبُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى السريع

والشاهد في هذه الأبيات كلمة "غضبي" حيث وردت خبرا لمبتدأ محذوف تقديره "هي"
وقد ساق عبد القاهر هذه الأبيات ليبين أثر الحذف في النفس التي تأنس بالإضمار وترى
الملاحظة كيف تذهب بالذكر .

ويضع عبد القاهر الجرجاني تفسيراً لمواضع حذف المفعول به ، ويربطه بحاجة المتكلم ،
وصلة اللفظ بغيره ، لأن ارتباط الفعل بما يليه يشكل العلاقة الأساسية في الجملة الفعلية ،
والحاجة إلى المفعول به لا بد منها إذا كان الفعل متعدياً . لأن أغراض الناس تختلف في
ذكر الأفعال المتعدية من غير أن غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين " ومثال ذلك قول الناس: "
فلان يحل ويعقد، يأمر وينهى، ويضر وينفع " والمعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في
نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة ، من غير أنه يتعرض لحديث المفعول، حتى كأنك
قلت: " صار إليه الحل والعقد ، وصار بحيث يكون منه حل وعقد ، وأمر ونهي ، وضر ونفع
" وعلى هذا القياس. (37) وحذف المفعول به له محاسن وفيرة ، وغايات كثيرة ، وفوائد جلييلة ،

فهو ضرب من ضروب الصنعة لا يتأتى إلا لحذاق البلاغة. ومن شواهد قول البحتري :

شَجَوْهُ حَمَادٍ وَغِيْظُ عَدَاهُ أَنُو رَى مُبْصِرُوهُ سَمِعَ وَاعٍ (38) الخفيف

وقد حذف المفعول به لدلالة الحال عليه ، والمعنى أن يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره
وأوصافه، "وقد يحذف المفعول لدليل في سياق كلامي كما في قولهم "أصغيت إليه " وهم
يريدون " أذني " لأنه مفهوم من المقام" . (39)

وعلى ذلك قول عمرو بن معدى كرب الزبيدي:

فلو أنّ قومي أنطقني رمأحهم نَطَقْتُ ولكنَّ الرماح أَجَرَتِ الطويل
والشاهد في هذا البيت " أَجَرَتِ " فعل متعد حذف منه ياء المتكلم لدلالة الكلام السابق عليها (أنطقني) .

ومن شواهد في التنزيل قوله تعالى: ﴿لَا وَدَّ مَاءٌ مَدِينٌ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِّنْ ثَوْبِهِم مَّرَاتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، قَالَ مَاحِطٌ كَمَا لَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاوُ وَذَا شَجِيرٍ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (40) فيه حذف مفعول في أربعة مواضع ، إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم، أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما ، ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره . ويؤتى بالفعل مطلقا، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي ، ومن المرأتين ذود ، وأنها قالتا: لا يكون منا سقي ، حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي ، فأما ما كان المسقي ، أغنما أم إبلا أم غير ذلك، فخارج عن الغرض وموهم خلافه، وذلك أنه لو قيل: وجد منه دوهم امرأتين تذودان غنمهما، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود ... فاعرفه ، تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت ، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جلييلة ، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه (41) ويحذف المفعول به بعد فعل المشيئة بعد لو، وبعد حروف الجزاء ، حذرا من التكرير . (42) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم لَمَىٰ أَلَمَىٰ، فَلَا تَكُونَنَّ لَهُمْ مَأْوَىٰ﴾ (43) والتقدير لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم .

و من ثم فبعد القاهر الجرجاني يرى أن الحذف ظاهرة اجتماعية كثيرة الاستعمال عند العرب ، لأنها تعبر عن أغراضهم ومدى تفننهم في استخدام اللغة لتكون رائعة متجاوزة حدود التواصل ، فالحذف عند العرب لا يرد اعتباطا ، بل له مزايا ولطائف يدركها من تدرس على اللغة وامتلك ناصيتها واستطاع أن يقف على مواطن الحذف ليكتشف أن أسباب الحسن والمزية في الحذف بدل الذكر .

ومن كلّ ما سبق نستنتج أنّ عند عبد القاهر الجرجاني استطاع بفكره المتقدم أن يبدع نظرية جديدة لا تفصل بين النحو والبلاغة ، بل تجعل النحو في خدمة البلاغة ، وتتجاوز حدود الإعراب وأواخر الكلم ، فقواعد النحو عنده لم تعد تهتم بالمبنى فقط . وإنما أصبحت مقياسا يهتدى به إلى البراعة ، ووسيلة من وسائل التصوير والصياغة . وما تسليط الضوء على التشكيل الفرعي للجملة عنده إلّا لبيان ارتباط النحو بالبلاغة . وبذلك حلّق في المعنى وسبر أغوار السياقات المختلفة من تقديم وتأخير وحذف واستفهام ، ونفي ، وإثبات... ليؤكد أن اللغة العربية لا ينفصل فيها المعنى عن المبنى . وأن المزية في تخير التركيب المناسب للمقام والحال . وبذلك خالف عبد القاهر الجرجاني سنن السابقين في نظرهم إلى النحو . وهذا ما يقره جعفر دك الباب في قوله: " والواقع أن عبد القاهر يتطرق إلى مشكلة نحوية لا يبحث فيها بحد ذاتها ، ولكنه يتخذها منطلقا إلى ما هو أعمق للوصول إلى دلالاتها ودورها في تأدية النمط المنوط بالرسالة التي يستقبلها المتلقي ، وليس بمهدف أن يعلمنا الرفع والنصب والجزم فهذا مفروغ منه . إنما ينبهنا إلى معادن المعاني وتقرير حال الأوضاع ، والمبادئ ، وكيف تسري الأحكام في كل الأنحاء ، وبيان ارتباط البلاغة بغرض المتكلم الذي يقصد إليه من كلامه والمعاني التي أراد إثباتها أو نفيها" . (44)

الهوامش

- 1- د/ صالح بلعيد " التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني " ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1994م، ص70.
- 2- ابن جني " الخصائص " ط2، 1952، تح: محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، ج1، ص34.
- 3- د/ صالح بلعيد " التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني " ص72 .
- 4 المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 5- مبارك تريكي " النداء بين النحويين والبلاغيين " مجلة حوليات التراث - مستغانم، الجزائر- ص 136.
- 6 دلائل الإعجاز ص76، 77.
- 7- د/ تمام حسن " اللغة العربية معناها ومبناها " عالم الكتب ط4، 2004، ص18.
- 9 عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص23.
- 10- د/ محمد عباس " الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني " دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص66.
- 11- عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص70.
- 12- إبراهيم مصطفى " إحياء النحو " مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة، مصر ، 1959م، ص20.
- 13- سيويو " الكتاب " تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت لبنان، ط1، ج1، ص34.
- 14- عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص94.
- 15- المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.
- 16- المصدر نفسه ، ص95.
- 17- من الآية 28 من سورة فاطر .
- 18- عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص251.
- 19- د/ بسيويو عبد الفتاح فيود " دراسات بلاغية " مطبعة السعادة ، القاهرة، مصر ط01، 1989 م، ص75.
- 20- عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص107.
- 21- "ديوان المتنبي " شرح : عبد الرحمن البرقون ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض، السعودية ، ط1، 2002م، ج1، ص265 .
- 22- " ديوان أبي تمام " تقديم وشرح : الدكتور محي الدين صبحي ، المجلد الأول ، دار صادر بيروت ، لبنان، ط1، 1997م، ص216 .
- 23- صالح بلعيد " التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني " ص177.
- 24- عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص115.
- 25- من الآية 14 من سورة الأنعام .
- 26- من الآية 40 من سورة الأنعام.
- 27- عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز " ص104.

28. أحمد جمال العمري "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري" مكتبة الخانجي القاهرة، 1990م، ص. 257
29. ابن جني "الخصائص" تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ص. 360
30. سيويوه "الكتاب" تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت لبنان، ط1، ج1، ص 280_281.
31. أبو سعيد السيرافي "شرح كتاب سيويوه" تحقيق: أحمد حسن مهدي علي، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2008م، ص. 205
32. المصدر نفسه، ص. 203.
33. ابن جني "الخصائص، ج2، ص. 360
34. عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص. 120
35. المصدر نفسه، ص. 122
36. المصدر نفسه، ص. 123_124.
37. عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص. 126
38. "ديوان البحري" دار صادر، بيروت، المجلد الأول، ص. 151
39. صالح بلعيد "التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص. 181
40. الآيتان 23_24 من سورة القصص.
41. عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" ص. 130_131.
42. د/أحمد أحمد بدوي "من بلاغة القرآن" نخضة مصر للطباعة والنشر، ص. 97
43. من الآية 35 من سورة الأنعام .
44. جعفر دك الباب "الموجز في شرح دلائل الإعجاز" مطبعة الأهالي، دمشق، 1980، ص. 35.